مملكة ماري السورية (١)

الخلفية الحضارية والتاريخية لنشوء مدينة ماري

2900 ق. م – 1760 ق. م

د.بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
دمشق — الجمهورية العربية السورية

Khleif200@hotmail.com

لعل الخوض في تاريخ مملكة ماري الواقعة على الفرات الأوسط ، والتي امتدت فاعليتها التاريخية والحضارية لما يزيد على الألف عام من حوالي 2900 . 1760 ق.م تدفعنا إلى البحث في العوامل والمعايير التي أدت إلى اعتبار الألف الرابع قبل الميلاد ولاسيما النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد/ مفصلاً رئيسياً في حركة تطور الاجتماع البشري في المشرق العربي آنذاك.[⊗]

ولم يكن هذا التطور ليحصل إلا عبر استناده على مجمل ما قدّمته حركة التطور التاريخي والحضاري في مدن المشرق العربي ومواقعه منذ نقطة انعطافه الرئيسة والتي تكمن في ابتكار الزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد ، وكذلك تدجين الحيوان.فمع هذا المنجز الحضاري المتميز أصبحنا أمام معادلات ومعايير وقيّم حضارية جديدة ، أدت فيما أدته إلى الشروع بتوالد للمنجزات الحضارية الأساسية والفاعلة في سياق التطور الاجتماعي والإنساني ليس على نطاق المشرق العربي فقط ، بقدر ما كانت القاعدة الرئيسة المادية والروحية لانطلاق الحضارة الإنسانية بعامة.

وبذا نستطيع أن نفهم مقولة الكاتب الفرنسي جاك كوفان JACQUES CAUVIN من أن "المعنى التقليدي لنشوء الزراعة ، يرتكز في معياره الحاسم على إنتاج المعيشة ، وأنه بهذا الانتاج إنما بدأ في الواقع صعود المقدرة البشرية التي ليست حداثتنا سوى ثمرة لها"[(١)]

الجدير ذكره هنا ، هو أن ابتكار الزراعة في مساق الحضارة البشرية ، تمَّ لأول مرة في المشرق العربي وتحديداً في المنطقة الممتدة من الفرات الأوسط مروراً بحوضة دمشق وحتى وادي الأردن.[⊗]

ولتبيان أهمية هذا المنجز على صعيد الحياة الإنسانية ، لابد أن نحدد الآفاق التي فتحها هذا الابتكار بما انعكس إيجاباً على مسار الاجتماع البشري بعامة والمشرقي بخاصة.

فأولاً: إن الاستقرار الذي أمّنته الحياة الزراعية أدى إلى إحساس المجتمعات القديمة بالطمأنينة والأريحية ما أدى إلى زيادة أعداد المجموعات البشرية واتساع مواقعها وتشكيلها لمستوطنات زراعية أخذت بالتوسع والكبر باطراد مع الزمن مؤدية إلى منجز نشوء المدن الأولى وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد في المشرق العربي القديم.

ثانياً: إن ما وفرته الحياة الزراعية من منتج ومردود ، دفع إلى نشوء التبادل التجاري النشط وتطور عالم التجارة ، ما انعكس على المجتمعات الزراعية آنذاك وتبدّى في غناها وتعبيرها عن الازدهار

[⊗] المشرق العربي ، اصطلاح جغرافي يعني المنطقة التي تضم بلاد الرافدين وبلاد الشام ، والتي أكدت الكشوف والأبحاث الأثرية فيها على وجود وحدة حضارية وتاريخية واحدة تزامنت في خط حضاري واحد عبر الأزمنة ما قبل التاريخية ومن ثم التاريخية وهذا ما يعبّر عنه بوحدة الحياة في دورة روحية . اقتصادية . اجتماعية واحدة. وتُعرَف هذه المنطقة أيضاً بما يسمى " الهلال الخصيب " LE CROISSANT FERTILE.

[⊗] للاطلاع على المزيد في مجال ابتكار الزراعة يمكن الرجوع لمؤلفات عديدة منها: المزارعون الأوائل للدكتور سلطان محيسن عن دار الأبجدية ، وكتاب الباحث جاك كوفان:

"NAISSANCE DES DIVINITE'S NAISSANCE DE L'AGRICULTURE " CNRS EDITIONS 1997

ترجمة الأستاذ موسى ديب الخوري وصدر عن وزارة الثقافة السورية تحت عنوان: الالوهية والزراعة .ثورة الرموز في العصر النيوليتي- 1999. وكذلك كتاب الباحث كوفان: " القرى الأولى في بلاد الشام " عن دار الحصاد . 1995. ترجمة الياس مرقص.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
بشار محمد خليف ، مملكة ماري السورية: الخلفية الحضارية والتاريخية لنشوء مدينة ماري.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٢٩ — ٣٣ .
(www.historicalkan.co.nr)

الاقتصادي والتجاري بما سيؤدي إلى تطور في مجمل الحياة المادية والروحية. بالإضافة إلى ما قدّمه هذا المنجز من نشوء بوادر الادخار والتخزين وعالمهما الرحب.

ثالثاً: نتيجة دفع العامل الزراعي للتبادل التجاري فقد أدى ذلك إلى استنباط وسائل أولية للعدّ تُسهل من عملية التبادل التجاري والسلعي وهذا ما اعتبرته الأبحاث العلمية نواة ظهور علم العدّ والحساب ومن ثم سوف تتوالى المظاهر الحسابية بتطور واضح وصولاً إلى ظهور بوادر الكتابات والتي أخذت تتضح تباعاً عبر الكتابات التصويرية إلى المقطعية مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

رابعاً: أدى منجز ابتكار الزراعة إلى تطور تقنيات الصناعات الفخارية والحرفية بما ساهم في تطور الفنون في مناحيها الفردية والمجتمعية والاقتصادية. ولعل تراكم الخبرات التقنية عبر العصور هو الذي أدى إلى الدخول في عالم استثمار المعادن بدءاً من النحاس فالبرونز ثم الحديد مروراً بالقصدير والفضة والذهب.

خامساً: إن نشوء الزراعات المروية جعل المجتمعات تسعى إلى تنظيم وسائل الري ومقتضياتها وذلك عبر إنشاء السدود والسواقي والأقنية المائية منها والملاحية ما اقتضى تبعاً لذلك من نشوء حاجة اجتماعية لوجود سلطة مجتمعية تنظم أعمال هذا المرفق في الموقع نفسه وتالياً في العلاقة مع المتحدات الأخرى وهذا ما بلوّر في النهاية ظهور السلطة إن كان في وجهها المعبدي/المعتقدي أولاً، أو في وجهها الزمني / السياسي، بعد انفصال سلطة المعبد عن السلطة الزمنية في دول المدن ولاسيما في عصر الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

يقول الباحث بوهارد برينتس:

" إن التطور الذي أدى إلى الثورة العمرانية ونشوء المدن الأولى لم يكن ليحصل إلا نتيجة لظهور الزراعة وتطورها وتقسيم العمل، في الحرفة والزراعة وظهور التجارة. وإن النمو الكبير لمردود العمل / حيث أنه في الزراعة، ازداد الانتاج خمسة أضعاف عما كان عليه في مرحلة الصيد/ أدى إلى زيادة سريعة في عدد السكان ما أدى إلى ظهور المدن الكبرى وبروز أشكال جديدة في حياة المجتمع ".[٢]

وعلى كل هذا صار بإمكاننا النظر إلى منجز الزراعة كمنجز توالدي، فهو أدى إلى ظهور التجارة والتبادل التجاري، كذلك ساهم في نشوء علم العدّ والحساب، ثم علم الكتابة وكذلك دفع بقوة باتجاه ظهور السلطة للمجتمع كضرورة حتمية للتطور المدني ومن ثم نشوء المدن الأولى.

بالإضافة إلى خلقه لمعايير وقيم ورموز جديدة في كافة أوجه النشاط للاجتماع البشري ناهيك عن توطيده لعلاقة المجتمع بالأرض وعلاقات المجتمعات بين بعضها البعض ما خلق رائزاً مهماً للتفاعل الإنساني والانفتاح بين المجتمعات الإنسانية.[⊗]

ولا بأس هنا من محاولة لرصد أوجه الحياة في المشرق العربي القديم في الفترة الممتدة من منتصف الألف التاسع قبل الميلاد وحتى منتصف الألف الرابع كي نستطيع تحديد المعايير والقواعد والأرضية الأساسية التي ساهمت في نشوء المدن الأولى في فجر التاريخ في المشرق العربي ومن ثم في نشوء مدينة ماري في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد.

المشرق العربي بين ظهور الزراعة 8300 ق.م وحتى نشوء المدن الأولى حوالي 3500 ق.م

مع حلول الألف الثامن قبل الميلاد، نلاحظ أن الزراعة شملت معظم مواقع المجتمع المشرقي العربي. بالإضافة إلى تزامن هذا مع تدجين الحيوانات.

وتشير الدراسات والأبحاث إلى أن النمط المعماري للمساكن أخذ بُعداً جديداً عبر التصاق المساكن ببعضها البعض ما يعطي انطباعاً بمعالم الاستقرار الدائم من جهة، ومن جهة أخرى الالتحام الاجتماعي والألفة بين سكان تلك المجتمعات وهذا سوف يؤدي بدوره إلى رسوخ التقاليد المجتمعية الزراعية حيث أن عالم الحياة الزراعية خلق إيقاعاً مجتمعياً يتماهى إلى حد كبير مع إيقاع البيئة الطبيعية والوسط الحيوي وهذا ما انعكس في الذهنية المجتمعية المشرقية وفي ظهور الأساطير والأدبيات الشفاهية ذات الأساس الخصبي والتي تمتلك بُعداً اعتقادياً يُعنى بعلاقة المجتمع مع رمز الخصب والذي يتبدى في إله المطر والخصب / دموزي .أدد .البعل /.. وكما هو معلوم، فإن الحياة الزراعية تحتم التآلف والتعاون الاجتماعي وهذا ما سوف يؤدي إلى التفاهم الاجتماعي من أجل تطوير عوالم الري عبر استخدام وسائل للري الصناعي إن كان عن طريق الأقنية أو السواقي أو السدود وهنا نكون أمام ظهور للزراعات المرّوية كالكتان مثلاً وهذا يؤرخ في حوالي 6500ق.م.

وفي هذه الفترة أيضاً سوف نلاحظ أننا أمام منجز معماري صحي تجلّى في إنشاء أقنية للتصريف داخل المنازل. وقد أبان موقع بقرص في سورية والذي يرقى إلى حدود 6500 .6000 ق.م عن نشوء أول قرية منتظمة بشكل مبكر حيث أنشئت وفق مخطط معماري مسبق. وبالاتجاه نحو الفترة الممتدة بين 6000 .3500 قبل الميلاد، فإن موقع الكوم في البادية الشامية قدّم دليلاً على ممارسة الزراعة المروية عبر جرّ المياه من الينابيع أو الأنهار كالفرات مثلاً.[٣]

أيضاً سوف نلاحظ في موقع سامراء في الجناح الرافدي والذي يعود إلى 5300 ق.م ظهور ابتكار جديد في مجال العمارة بما يعكس المناخ المستقر الذي أمّنه عالم الحياة الزراعية، حيث أبان هذا الموقع على أن سكانه ابتكروا قوالب خشبية/ وذلك للمرة الأولى في التاريخ

[⊗] لعل هذا يتبدى جلياً حين البحث في حركة انتشار الزراعة من المشرق العربي القديم إلى العالم آنذاك إن كان نحو الأناضول أو مواقع عالم المتوسط أو مصر. للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتابنا " دراسات في حضارة المشرق العربي القديم" الدراسة الأولى. دار الإنماء الحضاري 2003.

الإنساني/ لتكييف اللبن في تشييد جدران المنازل. وتنبغي الإشارة في هذا المجال إلى أن مواقع المشرق العربي استخدمت المعادن ولاسيما النحاس منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

ومع حلول منتصف الألف الخامس نجد مواقع الجنوب الرافدي وتبعاً لإشراطات البيئة الطمية والمستنقعية تعمد إلى تكييف الوسط الطبيعي بما يلائم احتياجاتها فقد عمد سكان تلك المواقع إلى مكافحة ملوحة التربة ، وتجفيف المستنقعات ، ومارسوا الزراعة المروية بإتقان. ولعل استخدامهم المبكر لتقنيات الري الصناعي حتمت نشوء سلطة مجتمعية وبنى اجتماعية ادارية متطورة وهو ما مهّد إلى تأسيس أولي للقاعدة المادية الاجتماعية لنشوء المدن الأولى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.

" فالفترة الممتدة بين نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وبداية الألف الثالث ، تلعب دوراً خاصاً في التاريخ البشرية ، ففي هذه المرحلة قامت سلطة الدولة التي هي نتاج حركة المجتمع وتطوره ".[٤]

ومع حلول منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، أصبحنا أمام محددات ومداميك واضحة تبدّت في نشوء المدن الأولى. فنتيجة لكل ما سبق من تراكم للخبرات الحياتية من بيئية واقتصادية واجتماعية واعتقادية وذهنية تطورت عن النظام الزراعي وعوامله ونتائجه أصبح المشرق العربي أمام مجتمعات مركبة ذات علاقات حياتية معقدة فرضت انبثاق السلطة المنظمة لحركة المجتمع وتفاعلاته سواء كانت سلطة معتقدية[⊗] أو سلطة سياسية رغم أن الأولى سبقت الثانية في ظل سيادة سلطة المعبد السابقة لانفصال المعبد عن القصر.

وبالإضافة إلى معالم نشوء المدن الأولى ، بتنا أمام ظهور لفاعلية المؤسسات المدنية في التجارة والحِرفِ والاقتصاد والملاحة ، وكل هذا يندغم وبشكل متجانس مع تضخم العمران حتى بتنا في هذه الفترة أمام مواقع لمدن شملت المشرق العربي بجناحيه. ففي الجناح الرافدي نجد مواقع مدن أوروك وأريدو وتبة .غورا ، أما في الجناح الشامي فنجد تل براك بمدينته ناغار في الجزيرة الشامية العليا ومواقع مدن حبوبة الكبيرة الجنوبية وعاردة وتل قناص. وتشير الأبحاث العلمية إلى وجود تشابه في النمط المعماري لمعابد تلك المواقع ، ما يعطي دلالة واضحة على وجود وحدة حضارية واكبت نشوء المدن الأولى في المشرق العربي آنذاك.

ويشير الباحث علي أبو عساف إلى أن التنقيب في تل براك / ناغار / نوار القديمة / إلى الشمال الشرقي من الحسكة ، كشف عن معابد ولقى أخرى تشابه معابد ولقى أثرية اكتشفت في أوروك في جنوب الرافدين. بالإضافة إلى أن التقنيات الأثرية في كل من جبل عاردة وحبوبة كبيرة الجنوبية وتل قناص التي تقع جميعها على ضفة الفرات اليمنى إلى الشمال من مسكنة ، كشفت تلك التنقيبات عن معابد من طراز معابد أوروك وبيوت سكنية في جبل عاردة وتل قناص. وفي هذه المعابد والبيوت والمدينة ، عثر المنقبون على أوانٍ فخارية وطبعات أختام أسطوانية ، وأوتاد ملونة زخرفية طينية مماثلة لما عثر عليه في أوروك ولكنها ذات طابع محلي. كما كشف التنقيب في موقع الشيخ حسن عن آثار من تلك الفترة تتمتع بمواصفات محلية "[٥]

ويتابع الباحث: " لقد شهدت البلاد إبان عصر فجر التاريخ عهداً مستقراً ممتازاً نشطت فيه الحركة التجارية بين مختلف هذه الوحدات الإدارية وغيرها ، في سبيل الإبقاء على طرق التجارة مفتوحة. فالجنوب الرافدي الذي كان يتوفر فيه فائض من غلال الحبوب والثروة الحيوانية ، رغب بتصديرها ومقايضتها مع المناطق المجاورة ، وكان بحاجة إلى الأخشاب والمعادن حيث يستوردها من مناطق أخرى فسهّلت منطقة ناغارا/تل براك ، هذه العملية وساهمت في حسن تنظيم الحركة التجارية مع آسية الصغرى وإيران وبلاد الشام ".

ويشير الباحث أيضاً إلى أن هذه المواقع الشامية كانت مدناً مزدهرة شدّت من أواصر التعاون القوي بين مختلف مناطق بلاد الرافدين والشام حتى بدا لنا ذلك التعاون اليوم وكأنه شامل يرقى إلى مستوى الاتحاد بين تلك الكيانات السياسية. وتظهر آثار ذلك في بناء المعابد على طراز واحد وتحصين المدن وإنتاج أواني فخارية متماثلة ، واستعمال الأختام الاسطوانية ذات النقوش المعبّرة عن أفكار متقاربة واتباع أسلوب واحد في تسجيل الحسابات.

والجدير ذكره هنا ، هو أن مدينة حبوبة كبيرة الجنوبية أُنشئت وفق مخطط مسبق ودقيق وقد أُحيطت بسور طويل / 600 متر / وعرضه ثلاثة أمتار. ولعل النمط المعماري المتبدي في المخطط المسبق للإنشاء والسور الواقي للمدينة ، سنجده مكرراً في نشوء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث وكذلك في تل الخويرة وإبلا وغيرها من مدن المشرق العربي القديم. أما لجهة الواقع الديمغرافي في هذه الفترة فقد أشارت الأبحاث إلى وجود ديمغرافي سومري وأكادي وتلحظ المعطيات تواجداً أكادياً إلى جانب السومريين. " ففي الموروث المدون لبلاد الرافدين والشام ، نقرأ أسماء ملوك سومريين وأكاديين في الجنوب الرافدي ، عاشوا جنباً إلى جنب متسالمين حيناً ومتخاصمين حيناً آخر منذ الألف الثالث قبل الميلاد... علماً أن السومريين والأكاديين كانوا في المشرق العربي منذ الألف الخامس قبل الميلاد حسب أكثر التقديرات تفاؤلاً ".[⊗]

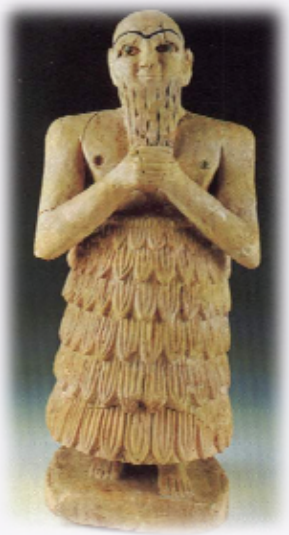

[⊗] نميل لاستخدام تعبير المعتقدية أو الاعتقادية لتفريقه عن التعبير المستخدم في الأدبيات التاريخية والذي يُطلق على الحياة الميثولوجية والليتورجية تسمية "الدينية ". ونعتقد أن هذا الأمر يواكب معطيات العلم الحديث ولا سيما علم تطور الإنسان ولا سيما في شقه الدماغي. فالمعتقد القديم هو تعبير عن التطور الذي وصل إليه الدماغ الإنساني في تفسير المعطى الماورائي. انظر كتابنا" دراسات في حضارة المشرق العربي القديم " الدراسة الأولى.

[⊗] انظر علي أبو عساف .وثائق الآثار السورية .وزارة الثقافة .المديرية العامة للآثار والمتاحف .سورية 2002 انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر ص 33.

وقد أشار بوهارد برينتس إلى أن " السومريين حين جاؤوا إلى الرافدين أكملوا ما بدأه العبيديون / 4500 . 3500 / ق.م وقد دلل على ذلك بأن الكتابة السومرية احتوت على كلمات كثيرة مقتبسة ممن قبلهم. بالإضافة إلى أن الكثير من أسماء الآلهة السومرية مأخوذة من لغات الشعوب التي سكنت الرافدين قبل السومريين.

ويشير الباحث أيضاً إلى أن المدن السومرية كانت تقريباً تحمل أسماء غير سومرية وتعود في أصولها إلى الحضارات التي سبقتهم /العبيديون /.[٦] ومع الاتجاه نحو نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، فإن منجزاً جديداً / تمخض عن عالم الزراعة وامتداداته / سوف ينبثق ، عنيتُ بذلك منجز الكتابة التي خرجت من معطف الحساب والعدّ في العمليات التجارية. وأضحت مدن المشرق العربي تمتلك مصالح اقتصادية وتجارية حتمت نشوء سلطة القصر الزمنية التي أخذت تنظم الفعاليات الحياتية المتنوعة وفق ما يلائم تطور المجتمع وتشابك علاقاته ، بالإضافة إلى تشابك المصالح بين المدن آنذاك.

وسوف نجد في هذه الفترة نشوء مدن مسوّرة في المشرق العربي منها: كيش . تل فارا . أبو صلابيخ في الرافدين ، بالإضافة إلى المدن العائدة للفترة السالفة. وفي بلاد الشام نجد تل العشارة . تل ليلان . تل براك. أما في الأردن فسنجد باب الضهرة وفي فلسطين ، مجيدو . خربة الكرك . تل الفرح. وفي لبنان ، جبيل.

والجدير ذكره هنا أن موقع مدينة أوروك في هذه الفترة أبان عن ظهور الموزاييك في معابدها كأول ظهور له في المشرق العربي. ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، نلاحظ أن منطقة الفرات الأوسط سوف تتجه إلى إبداء وتفعيل دورها الحضاري مستندة على الدور التاريخي لنهر الفرات وهذا ما تحقق في إنشاء مدينة ماري ، التي أقيمت وفق مخطط مسبق وداخل سور.

يقول الفرنسي جان كلود مارجرون: " لقد سمح نهر الفرات لسورية أن تشرع بعملية التمدن ، ذلك أنه يَّسر لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد. وهو دائماً وأبداً وللأسباب ذاتها الذي ضَمِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد ". ⊗

البيئة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الفرات الأوسط

تُشكل منطقة الفرات الأوسط جزءاً من الجزيرة الشامية ويمتد واديها بين دير الزور والبوكمال. وقد تمكن الإنسان من التوطن فيها رغم المعوقات الطبيعية والبيئية حيث ملوحة المياه الجوفية لهذا الوادي من جهة وقوة الفيضانات في نهر الفرات.

واستطاعت مجتمعات المشرق رغم هذا من التفاعل مع معوقات هذه البيئة بوجهتها الايجابية والسلبية حيث كشفت التنقيبات الآثارية على وجود قرى منظمة تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد ، كما في موقع بقرص وتل السن. وتشير الأبحاث إلى العثور حتى الآن على حوالي 150 موقعاً من جميع العصور. ويبدو أن هذه المنطقة شهدت فاعليتها التاريخية مع نهاية الألف الرابع باتجاه الألف الثالث قبل الميلاد فقد شهد وادي الفرات كثافة سكانية في الجزء الجنوبي منه حول مدينة ماري التي كانت مركز المنطقة السياسي والاقتصادي. واستطاع التقدم التقني في تجهيزات الري الزراعي من أن يجعل المجتمعات المستوطنة تتحكم بمجمل المساحات الطمية التي كانت تشكّل تجويف ماري وهذا ما سوف نناقشه في الفصل الثاني ، غير أننا نود أن نشير أن نهر الفرات قدّم لهذه المنطقة الممكنات التي أهلّتها كي تبدو " بصورة عالم مكتنز بالخيرات ، وضع فيه علم الماء القديم كل امكاناته لاستغلال جميع المساحات الزراعية المتوفرة أحسن استغلال ". ⊗

وهذا ما تبدّى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد عبر نشوء هذه الفعاليات المتحدية في تلك المنطقة. ولعل دراسة أحوال المناخ تبرز كيف أنه ومنذ حوالي 8200 ق.م بدأ المناخ بالاستقرار والتصاعد بصورة بارزة وصولاً إلى العصور التالية وتقدم الأبحاث المناخية معطياتها عبر أنه وفي حوالي 10000 . 9500 سنة خلت ، كان مناخ الجزيرة السورية بارداً

وبين 9500 . 8500 سنة خلت عمَّ مناخ دافئ.

ومن 8500 . 8200 سنة خلت حل عصر بارد.

ثم واعتباراً من 8200 ق.م عم دفء كبير وحار ثم ومن 3000 وحتى 800 ق.م أصبحنا أمام مناخ جاف ودافئ. ويشير د. عادل عبد السلام إلى أنه ومنذ ذلك الحين مال المناخ نحو التحسن نسبياً مع تذبذبات سلبية وايجابية حتى اليوم. وبشكل عام فإن المناخ في الجزيرة الشامية الآن يعتبر قريب الشبه بما هو عليه منذ الألف الثالث قبل الميلاد مع تغييرات قصيرة الأمد.[٧] وهذا يعني فيما يعنيه أنه في فترة إنشاء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كنا أمام مناخ شبيه بالمناخ الحالي وعنوانه الأساسي مناخ جاف ودافئ.

مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد

مع حوالي مطلع الألف الثالث عمّت المدن الحديثة الإنشاء المشرق العربي إلى جانب المدن الرائدة ، فإلى جانب أوروك في الجناح الرافدي نجد مدن ، كيش - أور - لاجاش -أوما- شوروباك . وأدب. أما في الجناح الشامي فسنجد تل الخويرة وماري بالإضافة إلى مواقع لم تكتمل فاعليتها التاريخية بعد مثل إبلا وأوغاريت وغيرها ، هذا بالإضافة إلى موقع تل براك و تل العشارة.

وقد حكمت السلالات السومرية تلك المدن ما عدا مدينتي كيش وماري حيث حكمتهما سلالات أكادية. ويشير البروفسور مارجرون إلى أن ماري حسب الاعتقاد القديم هي عاصمة سومرية ، لكن الأبحاث الحديثة تظهر أن ماري تمتلك صفاتاً سورية وإلى جانبها صفات سومرية.[٨]

الجدير ذكره هو أنه في هذه الفترة كانت مدن المشرق العربي تُبدّي مصالحها المدينية على ما سواها ، لهذا فإننا نجد الخلاف والحروب بين المدن وصراع المصالح هو المُتبدي في غياب أي وعي مديني اتحادي أو ما شابه. ولعل أهم خصائص حركة التاريخ والمجتمعات المدينية في هذه الفترة ، تتوضع من خلال:

⊗ انظر

EXPOSITION SYRO – EUROPEÉNNE D' ARCHEÓLOGIE. 1996 JEAN CLAUDE MARGUERON.

⊗ المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية . المعهد الفرنسي للآثار الشرق الأدنى 1989 استكشاف وادي الفرات الأوسط . جيرو مونشابير . ص 61 .

أولاً: حصول تطورات مهمة في مجال العمران وتقنياته ما أدى إلى توسع المدن ، وتلبية النظام العمراني لحاجات المجتمعات المادية والروحية.

ثانياً: إذا كانت مدن الألف الرابع قد أبانت عن سيادة السلطة الاعتقادية /المعبد على المجتمع ، فإن معايير الألف الثالث سوف تتجه لانفصال السلطة تلك عن المجتمع عمرانياً ، بحيث أبانت المكتشفات الأثرية على وجود معابد مفصولة عن المحيط المديني ، في مقابل مثلاً أن مواقع مدن أوروك وحبوبة كبيرة الجنوبية وعاروده وقناص كانت تقام المعابد فيها في أحياء خاصة.

مع ملاحظة أنه في ماري في الألف الثالث ، عثر على معابد مرتبطة بالقصر الملكي وهذا ما يُسمى /قصر معبد/ وهذا يعطي دلالة على وجود استقلالية ما عن الخط الذهني العمراني الاعتقادي الذي كان سائداً. ولربما يدل على احتواء للسلطة الزمنية لسلطة المعتقد/المعبد.

ثالثاً: في مجال الحياة الفنية وتبعاً للزمن ، كان لابد أن تشهد مدن المشرق ظهور اتجاهات فنية جديدة ومبتكرة ولا سيما في أسلوب العمل أو معالجاته ومواضيعه ، وهذا ما تُقدمه الأدلة الأثرية في فن الفسيفساء وصناعة الفخار والنقش على الأختام.

رابعاً: من أهم مميزات هذه الفترة وبالاتجاه نحو الألف الثالث يمكننا أن نلاحظ معالم انفصال للسلطة المعتقدية عن السلطة الزمنية ونشوء مؤسسات مدنية تُعنى بأوجه الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية والحرفية.

وتبعاً لهذا نفهم مقولة الباحث مارك لوبو من " أن الإشغال البشري/ في المشرق العربي / في الألف الثالث قبل الميلاد ، كان أثره ملموساً في ناحيتين أو منحنيين: الأول ، في الزراعة. والثاني ، المتولد عن الأول والذي يتجلى في التجمعات المدنية.

وإن هذين المنحنيين يتميزان في الانتشار الواسع والعميق ، بحيث بتنا أمام بنى اجتماعية واقتصادية لجماعات بشرية كانت مغلوبة ومقهورة ، والآن هي جماعات قادرة على التحكم جزئياً بالوسط البيئوي المحيط ".[٩]

المراجع

١. جاك كوفان – الألوهية والزراعة - ثورة الرموز في العصر النيوليتي- ت- موسى خوري – وزارة الثقافة ١٩٩٩- دمشق.

٢. بوهارد برينتس . نشوء الحضارات القديمة . ت . جبرائيل كباس . دار الأبجدية . دمشق ١٩٨٩

٣. سلطان محيسن . المزارعون الأوائل – دار الأبجدية – دمشق١٩٩٤.

٤. بوهارد برينتس . مرجع سابق.

٥. علي أبو عساف . انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر .وثائق الآثار السورية . وزارة الثقافة . سورية ٢٠٠٢.

٦. بوهارد برينتس . مرجع سابق.

٧. عادل عبد السلام . البيئة الجغرافية للجزيرة العربية واستيطانها. وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

٨. محاضرة للباحث الفرنسي جان كلود مارجرون في المركز الثقافي الفرنسي تحت عنوان ماري. ١٩٩١ . دمشق. ونشرت في صحيفة الحياة اللندنية بتاريخ ١٩٩١/١٢/٢٠ .

٩. الحوليات الأثرية السورية . ٤٣ . ١٩٩١ . دمشق. وزارة الثقافة السورية. مارك لوبو . طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م .

الدكتور بشار خليف في سطور:

كاتب وباحث سوري من مواليد دمشق عام ١٩٥٧. له كتابات في القصة القصيرة والشعر ، ودراسات أثرية وتاريخية. عضو إتحاد الكتاب العرب (دمشق) وعضو اتحاد الآثاريين العرب (دمشق). كتب في عدد وافر من الصحف والمجلات العربية المطبوعة والإلكترونية مثل: الحياة اللندنية - مجلة ديوان العرب- مجلة البناء - صباح الخير اللبنانية. صحيفة تشرين السورية - الأبجدية الجديدة- دورية كان التاريخية - الديار اللبنانية.